أسطورة القرصنة العربية فى الخليج

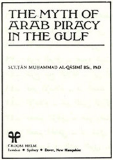

THE MYTH OF
ARAB PIRACY
IN THE GULF

SULṬĀN MUḤAMMAD AL-QĀSIMĪ BSc, PhD

CROOM HELM
London • Sydney • Dover, New Hampshire

عرض الأستاذ عبدالله بن حمد الحقيل

خلال حضوري مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب الذي عقد مؤخراً في أبو ظبي، تحت رعاية سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الامارات العربية المتحدة ، نظم المجمع الثقافي زيارات للمشاركين، يشاهدون أثناءها بعض الأماكن، والمعالم، ويقومون بزيارات لبعض الشخصيات الهامة في دولة الإمارات .

قمنا أثناء ذلك بمشاهدة بعض المناطق، والأماكن، والآثار، والمعالم الحضارية ، وقوبلنا من أهلها بكل مودة ، وحفاوة ، وترحاب ، أحسسنا أننا بين أهلينا ، وأشقائنا الذين جمعتنا وإياهم أواصر الدين، والتاريخ، والدم، الذي ينبض في العروق، مما زاد الشوق إلى امتداد زمن الإقامة، حتى نزداد إحاطة بما في تلك البلاد من معالم حضارية، وكنا كما قال الشاعر :

بلاد بها ما يملأ العين بهجة   ويسلى عن الأوطان كل غريب

ومن الشخصيات التي قمنا بزيارتها سمو حاكم الشارقة، الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، الذي تلطف بإهدائي نسخة من أطروحته العلمية التي حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة اكسترا، بإنجلترا وطبعت باللغة الإنجليزية عام ١٩٨٦م وتتكون من ٢٣٣ صفحة من الحجم المتوسط. وأستطيع القول بأن تاريخ الخليج، هذا الجزء العربي العريق بأصالته، وحضارته لم يلق من الحجم الوسط .

وأسرة القواسم ذات تاريخ بارز في الخليج ، وكانوا من مناصري الدعوة السلفية منذ ظهورها ، وكانت سفنهم في الخليج تمثل جزءاً هاماً لأسطول الدولة السعودية ــ الأولى والثانية ــ الذي كان كثيراً ما يتصدى لخصوم الدعوة، في رأي كثير من المؤرخين .

ومن خلال مطالعتي هذه الأطروحة، أدركت أننا بحاجة إلى المزيد من الدراسات التاريخية المنهجية، في تاريخ هذه المنطقة، إذ أن مثل هذه الدراسات تسهم بشكل واضح في كشف نواح تاريخية مهمة، وتزيح الستار عن حقائق مدفونة، وغير معروفة تاريخيا.

وأستطيع القول بأن تاريخ الخليج، هذا الجزء العربي العريق بأصالته، وحضارته، لم يلق ما يستحقه من دراسات المؤرخين، والباحثين، والمفكرين، رغم أهميته في الحاضر وامتداد تلك الأهمية إلى الأعماق السحيقة من عمر الزمن.

ولقد انبرى في وقت ما، عدد من المستشرقين، والرحالة، لكتابة ذلك التاريخ ونظراً لعدم قدرتهم على فهم لغتنا الفصحى، وعدم استيعابهم للهجاتنا المحلية، ومدلولاتها، وكذا عاداتنا، وتقاليدنا، وغير ذلك من أمور .. جعلتهم يقعون في أخطاء ـ إما سهواً، أو عمداً ـ بل إن كثيراً منهم كانوا يتحيزون في أحكامهم، وآرائهم .. وتحليلهم لتلك الأحداث التي يتعرضون لها بالدراسة .. وتصدر تلك الآراء في كتب تتحدث عن تاريخنا .. والعجيب أن الكثيرين منا كان يعتمد على تلك الكتب كمراجع ومصادر يستقي منها ما يود الوصول إليه من معلومات .. وبذلك انتشرت تلك الأخطاء، وأصبحت كأنها حقائق مسلمة .. وكان الأحرى بمن يعتمدون على هؤلاء، أن يعرفوا منذ الوهلة الأولى، وقوع هؤلاء في أخطاء، تكاد تكون بدهية كأسماء الأعلام، والأماكن، والبلدان، وعدم مقدرتهم على ضبطها، مما يؤدي إلى اضطراب وخلل فيما يبنى على ذلك من معلومات.

ولذا نهيب بمثقفينا، ومؤرخينا، ومؤسساتنا العلمية أن يأخذوا المسئولية على عاتقهم في إعادة كتابة تاريخ بلادنا، وتمحيصه من الدخيل، والأخطاء، والاهتمام بنشر التراث .. والسير بخطى وطيدة، ورصينة في هذا الاتجاه..

ولعل ما يملأ النفس غبطة، أن كتاب «أسطورة القرصنة العربية في الخليج» يسير في هذا الاتجاه .. لذا يعتبر أحد روافد المعرفة التاريخية، التي تصحح مسيرة الأفكار المتحيزة إلى وجهتها الصحيحة..

وتعالوا بنا نستعرض مضمون الكتاب..

يحتوي فهرس المحتويات على ما يلي:

١ ـ الخليج العربي في القرن الثامن عشر..
٢ ـ اتهامات، القرصنة ١٧٩٧ ـ ١٨٠٦.
٣ ـ الهجوم على رأس الخيمة عام ١٨٠٩.
٤ ـ المفاوضات والمعاهدة عام ١٨١٤.
٥ ـ تدمير القواسم عام ١٨١٩..

ثانياً : المصادر:

وثائقـه:

- **أرشيف الدولة في هولندا.**
- **أرشيف بومباي/ الهند.**
- **مكتبة وزارة الهند.**
- **الأرشيف الوطني للهند.**
- **مركز البحوث والوثائق/ أبو ظبي (وثائق بالفرنسية).**
- **مجموعة وثائق بريطانية أصلية خاصة.**
- **وثائق منشورة (بلغات مختلفة).**

ثالثاً: دراسات (كتب منشورة بالأنجليزية:

١ ـ قراصنة ساحل عمان عام ١٩٦٦.
٢ ـ ساحل القراصنة عام ١٩٦٦.
٣ ـ إمارات الساحل المتهاون عام ١٩٧٠.
٤ ـ بريطانيا والخليج (١٧٩٥/ ١٨٨٠) عام ١٩٦٨.
٥ ـ العراق الحديث في أربعة قرون عام ١٩٢٥.
٦ ـ تاريخ بحرية الهند.
٧ ـ شركة الهند الشرقية (١٧٨٤/ ١٨٣٤) عام ١٩٤٠.
٨ ـ تاريخ الاقتصاد الهندي/ كامبروج.
٩ ـ سادة الشرق: شركة الهند الشرقية وأسطولها.

ويوجد صورة لعدد من اللوحات الزيتية الملونة تصور اجتياح رأس الخيمة والقواسم.

لقد كان الانجليز هم القوة المسيطرة في الخليج العربي في أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر .. وقد جرى الرأي في تبرير التوسع البريطاني في منطقة الخليج على أنه كان ضرورة حتمية لقمع القرصنة العربية..

وهذا الكتاب يفند هذا الزعم، ويتصدى لأسطورة تلك القرصنة، ويؤكد بالأدلة أن خطر القرصنة كان صورة خلقتها شركة الهند الشرقية لأسباب تجارية بحتة .. فقد كانت الشركة عازمة على زيادة نصيبها في تجارة الخليج مع الهند على حساب التجار العرب في المنطقة، خاصة القواسم في مدخل الخليج .. ولم يكن لرئاسة الشركة في بومباي سفن حربية كافية لهزيمة أسطول القواسم .. ولذا لجأت إلى إقناع الحكومة البريطانية بتكليف الأسطول البريطاني بتحقيق تلك السيطرة..

ومن هذا المنطلق تولت شركة الهند الشرقية تنظيم حملة لتصوير القواسم .. زوراً، على أنهم قراصنة يهددون كل النشاط البحري شمال

المحيط الهندي والمياه المجاورة له .. وصار كل حادث يقع لأية سفينة في المنطقة يؤول على أنه هجوم من قراصنة القواسم..

وقد أدت هذه الحملة في النهاية إلى اجتياح رأس الخيمة وتدمير القواسم..

ومن واقع دراسة مكثفة ودقيقة لأرشيف بومباي البريطاني لم يسبق لباحث الاطلاع عليه جاء هذا الكتاب ليقدم صورة جديدة تماماً عن فترة هامة في حياة الخليج ... وهو أيضاً يلقي الضوء على أسلوب شركة الهند الشرقية وطريقتها في فترة دقيقة من توسع الأمبراطورية البريطانية..

ولقد قام جون جوردون لوريمر منذ ثلاثة أرباع القرن تقريباً بتأليف موسوعته الكبرى عن الخليج الذي عربه قسم الترجمة في مكتب أمير قطر، وطبع باسم «دليل الخليج» في قسمين: تاريخي، وجغرافي، وكل قسم سبعة مجلدات ومنذ ذلك الحين أصبح التشويه المتعمد لتاريخ شبه الجزيرة العربية سائداً لم يتصد له أحد، ونقل المؤرخين عن لوريمر، دون روية وتبصر وتفكير، كل ما ساقه من أخبار، وما توصل إليه من قناعات عن الخليج وأهله.

ولوريمر كان موظفاً مدنياً في حكومة الهند البريطانية قضى معظم حياته الوظيفية في الهند وأن أعداد الدليل الشهير الذي ارتبط اسمه به كان بتكليف من اللورد كيرزون، نائب الملك في الهند، عقب رحلة قام بها اللورد للخليج عام ١٩٠٣م.. وكان الهدف الأساسي منه هو أن يكون هناك، تحت يد مندوبي بريطانيا وواضعي سياستها في كل من الخليج والهند ولندن، كتاب يمكن تداوله عن البلاد والمصالح البريطانية التي سوف يتعاملون معها .. وكان لا بد من توافر أسانيد وثائقية تدعم النفوذ البريطاني في المنطقة وتبرر وجوده وتوسعه في وقت بلغ فيه التوتر الدولي مداه وتصارعت أطماع القوى الاستعمارية الكبرى على خيرات الشعوب..

كان من المستبعد أن يلتزم لوريمر، الموظف البريطاني في حكومة الهند البريطانية، بالحياد والموضوعية، في دراسته لسياسة بلاده وفي رواياته ـ نقلاً عن وثائق بريطانية سابقة ـ التي تضمنها الجزء التاريخي من الدليل.

لقد وضعت الحكومة البريطانية في الهند تحت تصرف لوريمر كما هائلاً من الوثائق التي تخدم موضوعه لكن منهجه كان إنتقائياً إلى أقصى حد، وبالشكل الذي يخدم هدفه، فاستطاع بذلك نسج أكاذيب وشائعات على أنها حقائق لا تقبل الشك..

وقد أدت ترجمة هذا المؤلف الكبير إلى اللغة العربية إلى رواج وجهة النظر الاستعمارية البريطانية في موضوعات يتصدى لأحدها اليوم سمو أمير الشارقة الدكتور سلطان القاسمي وهو

مسألة القرصنة العربية في الخليج وذلك في كتابه، «**أسطورة القرصنة العربية في الخليج**» الذي صدر بالإنجليزية عام ١٤٠٦هـ وهو يمثل أطروحته للدكتوراه يقول سمو أمير الشارقة في مقدمة كتابه:

يقول سمو أمير الشارقة في مقدمة كتابه :

«لقد حاول مؤيدو الاستعمار البريطاني ترويج الفكرة بأنه في أواخر القرن الثامن عشر وخلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر، اندفع عرب الخليج بحماس بالغ، خاصة القواسم، في موجة قرصنة عارمة ضد التجارة الدولية ليس في الخليج وحده، لكن في البحر الأحمر أيضاً، وفي بحر العرب والمحيط الهندي.

«أصحاب هذه الحجة يريدون منا الاعتقاد بأن عرب الخليج قد نالوا الخلاص من تلك الأفعال الشائنة بفضل الجهود الطيبة لشركة الهند الشرقية البريطانية، التي كان تدخلها في الخليج لحفظ القانون والنظام. أما ما نتج عن ذلك من سيطرة بريطانية على الخليج لمدة قرنين من الزمان فقد اعتبروه التزاماً ألقى على عاتق بريطانيا دون أن تسعى إليه..».

ويوضح الدكتور القاسمي رأيه في نفس المقدمة تفنيداً للحجة البريطانية:

«في رأيي أن شركة الهند الشرقية كانت عازمة على زيادة نصيبها في تجاره الخليج بأية وسيلة .. وكانت أية زيادة في نصيب الشركة لا بد وأن تكون على حساب العرب من أهل الخليج وهم: العتوب والعمانيون والقواسم» ... «وقد أدركت حكومة الشركة في بومباي أن أي تصد لمخططاتها في الخليج سوف يأتي من جانب القواسم .. لكنها كانت على دراية جيدة أن سفنها الحربية ليست نداً لأسطول القواسم القوي...» لذلك كان لا بد من تعبئة دوائر اتخاذ القرار في كل من حكومتي بومباي والهند بل وفي الأمبراطورية نفسها ضد القواسم». وبناء عليه شرع مسئولو الشركة في حملة منظمة لتصوير القواسم وبالأحرى تشويه صورتهم على أنهم قراصنة، وتمثل أعمال النهب التي يقومون بها تهديداً خطيراً لكل الأنشطة البحرية في المحيط الهندي، والمياه المجاورة له .. وصار كل حادث يقع لأية سفينة في المنطقة يعزى بشكل متعمد إلى قراصنة القواسم .. بهذه الوسيلة تم تنفيذ خطة «الكذبة الكبرى».. وأصبح لقب «القواسم» بين عشية وضحاها مرادفاً للفظة «قراصنة» بل وأصبح موطن القواسم يسمى «ساحل القراصنة» بدلاً من الساحل العربي» .. وبذلك صارت الحرب على «القرصنة» هي نداء المعركة لشركة الهند الشرقية البريطانية وإذا حدث ولم تقع هناك إحداث قرصنة فإن الشركة كانت كفيلة بتلفيق وقائع وإلصاقها بهؤلاء «القراصنة» الوهميين .. ولنا أن نستشهد بقول فيليب فرانسيس عضو البرلمان البريطاني في ذلك الحين، في تعليق له في مجلس العموم أثناء مناقشة أمور الشركة في أنه «كلما كان

الرئيس العام ومجلس إدارته ميالين إلى شن الحرب ضد جيرانهم كان من السهل عليهم دائماً تلفيق أية قضية تناسب غرضهم» .. وأخيراً تم في عام ١٨٢٠م خلق وضع معين في الخليج لا يختلف عن حرب السويس عام ١٩٥٦م مع فارق وحيد هو أن عملية الخليج أدت إلى تدمير القواسم»..

هذا وقد لجأ سمو الأمير الدكتور القاسمي إلى الوثائق البريطانية نفسها في بحثه لرفع هذا الظلم التاريخي الفادح الذي ألصقه المؤرخون بالقواسم. وروجه لوريمر في موسوعته الضخمة «دليل الخليج» وكذلك كل من سار على نفس منواله في البحث والكتابة المتحيزة.

كانت أهم المصادر الوثائقية التي اعتمد عليها الدكتور القاسمي في دراسته هي أرشيف بومباي الذي تجاهله الباحثون الأوربيون، أو لم يهتموا بوجوده ويرجع ذلك كما يقول الدكتور إلى طغيان شهرة أرشيف مكتبة حكومة الهند البريطانية على ما عداه .. وقد اكتشف الدكتور أن إرشيف بومباي هو «أغزر مادة وأكثر اكتمالاً من وثائق مكتبة حكومة الهند، وبخاصة ما يتعلق منها بوثائق الفترة التي تعني بها هذه الدراسة»..

ولنا أن نعرف مدى الجهد العلمي الكبير الذي بذله الدكتور القاسمي إذا علمنا أن وثائق أرشيف بومباي تقع في سبعة آلاف مجلد أقدمها يرجع تاريخه إلى عام ١٦٣٠م وتشمل يوميات شركة الهند الشرقية، التي كان نشاطها التجاري هو المقدمة للاستعمار البريطاني للهند طوال أربعة قرون .. كذلك عثر الدكتور على وثائق عربية ومراسلات عربية بين الزعماء العرب ومسئولي الشركة في ذلك الحين.

إن كتاب سمو أمير الشارقة الدكتور سلطان محمد القاسمي يعد إضافة كبرى للمكتبة العربية، وقراءة جديدة لحقبة هامة من تاريخ الخليج كانت أسلحته فيها العلم والحس الوطني والعمل الدؤوب، فاستطاع من وقاع الوثائق التي أغفلها أصحاب الهوى والغرض من المؤرخين والباحثين أن يمحوا الزيف الذي لحق بتاريخ فترة معينة من حياة الخليج العربي.. على هذا الجهد المتميز نحييه ونتمنى أن نرى المزيد من الدراسات التاريخية الأصيلة والجادة .. حقق الله الآمال ...